العنوان:	دور المطوعة في هزيمة الصليبيين بالمنصورة سنة 647 هـ / 1250م
المصدر:	مجلة كلية دار العلوم
الناشر:	جامعة القاهرة - كلية دار العلوم
المؤلف الرئيسي:	زيدان، يسري احمد عبدالله
المجلد/العدد:	ع 61
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
الشهر:	أكتوبر
الصفحات:	43 - 58
رقم MD:	148194
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	جهاد الصليبيين، معركة المنصورة، الحروب الصليبية، المطوعة، الجهاد، الدفاع عن الوطن، المجاهدون، مصر، تاريخ مصر
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/148194

© 2020 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

دور المطوعة فى هزيمة الصليبيين بالمنصورة سنة ٦٤٧هـ/١٢٥٠م

أ.د. يسرى أحمد زيدان (*)

تمهيـــد :

تعد معركة المنصورة من المعارك الفاصلة فى تاريخ مصر ؛ حيث تلاحم عامتها وعلماؤها مع جيشها تلاحما قويا أسهم فى إفشال الحملة الصليبية السابعة التى استهدفت مصر . وقد أظهر المطوعة من الفقهاء والمحدثين والسوقة ، وغيرهم ضروبا من البطولة والفداء تجل عن الوصف ، وأبلوا – جميعا – مع الجيش بلاءً حسنا ؛ حمى مصر من استعمار صليبى بغيض ، عانت بلاد الشام ويلاته أكثر من مائتى سنة.

ولم يبدأ دور المطوعة فى الجهاد بصفة عامة ، وفى جهاد الصليبيين بصفة خاصة مع معركة المنصورة ، بل نهض بهذا الدور هؤلاء المطوعة قبل ذلك بقرون ، واضطلعوا بهذا العبء منذ بدء طلائع الزحف الصليبى على آسيا الصغرى والشام سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م . يذكر النويرى(١) أن أهل دمشق من العوام وغيرهم كانوا يقاتلون الصليبيين ، ويركبون مع الملوك ، واختصت كل طائفة منهم بحفظ مكان من دمشق . واستمر ذلك حتى زمن الملك المعظم

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة ، ووكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث .

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٤ .

عيسى بن العازل (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٦م) "فأبطل ذلك وقال : لا تقاتل بالعوام ، وإنما فعل ذلك خوفا على نفسه منهم" .

وقد انضم عدد كبير من المطوعة إلى جيش بلاد الشام سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م لمقاتلة الصليبيين بأنطاكية التى استولوا عليها دون قلعتها ، لكن القيادة السياسية بالشام لم تحسن آنذاك استثمار هذه الجموع المجاهدة فى هزيمة الصليبيين بأنطاكية ، وأوقعتها فى المهالك ، فرجحت كفة الصليبيين ، وكانت النتيجة هزيمة الجيش والمطوعة "وقتل من المطوعة والغلمان والسوقة خلق كثير"(١) . وعبر عن ذلك ابن القلانسى بقوله : "ووقع السيف فى الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالبين فى الرغبة والجهاد وحماية المسلمين"(٢) . واستمر المطوعة يؤدون دورهم الحيوى فى جهاد الصليبيين المحتلين لمساحات شاسعة من أراضى الشام .

ولم يتخلف مطوعة مصر عن ركب الجهاد ضد الصليبيين خاصة عندما بدئ فى غزوها فى الجملة الصليبية الخامسة سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ، وأدت إلى سقوط دمياط فى السنة التالية مباشرة فى أيدى الصليبيين الذين أرادوا تحقيق أمانيهم بالزحف منها صوب القاهرة للظفر بما فشلت فيه كل المحاولات الصليبية السابقة جميعا ، إلاّ أنّ القوات المصرية الأيوبية أحسنت الاستفادة من طبيعة الأرض عند بحر أشموم (البحر الصغير الآن) التى ستشهد اللقاء بالصليبيين ؛ فحالت القنوات والترع وقت فيضان النيل دون تقدم الصليبيين إلى القاهرة ، وقطع الجيش الأيوبى خط الرجعة إلى المدينة السليبة دمياط ، وأبلى المطوعة فى هذا الصراع بلاء طيبا ، واستجابوا للملك الكامل الذى كان

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص١٣٧ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٣٦ .

يستحث المطوعة على جهاد الصليبيين[١]؛ فقدم التجار أموالاً ضخمة لهذا الغرض[٢] ، وعبء الفقهاء تعبئة حسنة ، ومن هؤلاء الفقهاء : الفقية تقى الدين طاهر المحلى[٣] ، وبذل فقهاء آخرون دماءهم رخيصة عند دمياط ، فسقطوا شهداء فيها ، وممن نصت عليهم المصادر من هؤلاء الشهداء : الفقيه جلال الدين عبد الله بن نجم ، الفقيه المالكى[٤] ، والفقيه محمد بن الحسين الأنصارى خطيب جامع عمرو بن العاص[٥] ، وغيرهما كثير .

وقد كانت العامة تكر على الصليبيين عند طلخا أكثر مما يكر عليهم العسكر[٦]. وللصالح نجم الدين أيوب وصية لابنه تورانشاه ، اعترف فيها بدور العامة العسكرى فى أيام الأيوبيين ، وطلب إليه ألا يعتمد إلاّ على من أثبت جدارته ، وأظهر فروسته من هؤلاء العوام[٧] .

استعداد المطوعة لملاقاة الصليبيين بالمنصورة :

تمكن الصليبيون بزعامة لويس التاسع ملك فرنسا من الاستيلاء على دمياط فى شهر صفر ٦٤٧هـ الموافق لشهر يونيه ١٢٤٩م فى أثناء حملتهم الصليبية السابعة على مصر والتى أحسن إعدادها وتجهيزها فى فترة ثلاث سنوات كاملة ، وسقطة دمياط بأسلحتها وأقواتها وذخائرها فى هذه المرة بكل سهولة بسبب بعض التحركات غير الواعية من أمير الجيش المكلف بحمايتها

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٩٣ .

(٢) راجع النويرى : السابق ص٨٨ .

(٣) راجع المقريزى : السلوك جـ١ قسم ١ ص٢٠٢ .

(٤) الغسانى : العسجد المسبوك جـ٢ ص٣٦٨ والذهبى : العبر جـ٣ ص١٧٠ .

(٥) راجع السبكى : طبقات الشافعية جـ٨ ص٤٨-٥٥ .

(٦) المقريزى : السلوك جـ١ قسم ١ ص٢٠٦ .

(٧) راجع النويرى : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٤٩ ومن ص٣٤١-٣٥٢ .

فى هذه المرة ، وكانت دمياط فى الحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة خمس عشرة وستمائة للهجرة قد قاومت لأكثر من عام كامل بالرغم من قلة الزخائر والأقوات والأزواد والأمتعة والسلاح فيها فى تلك السنة(١) . وأصبح الوضع السياسى العام للدولة الأيوبية فى غاية السوء ، لا سيما والسلطان الصالح نجم الدين أيوب مريض "قد ضعفت قواه عن الحركة ، وليس له قدرة على ضبط جنده"(٢) . وقد عبر المؤرخ المعاصر للأحداث ابن واصل (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) عن هذا الموقف بأن اليأس قد وقع وانتشر من المحافظة على الديار المصرية دون احتلال من الصليبيين(٣) . وهو ما أكد عليه عمدة مؤرخى مصر الإسلامية المؤرخ المقريزى بقوله : "وبلغ ذلك أهل القاهرة ومصر (الفسطاط) فانزعج الناس انزعاجا عظيما ، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر لتملك الفرنج مدينة دمياط ، وهزيمة العسكر ، وقوة الفرنج بما صار إليهم من الأموال والأزواد والأسلحة والحصن الجليل الذى لا يُقدر على أخذه بقوة ، مع شدة مرض السلطان وعدم حركته"(٤) .

---

(١) راجع سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص٧٧٢-٧٧٧ وابن أيبك :كنز الدرر جـ٧ ص٣٦٥-٣٧٠ والنويرى : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٣٤-٣٣٥ والذهبى : دول الإسلام جـ٢ ص١٥٢ والعبر جـ٥ ص١٩٢-١٩٣ والمقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص٣٣٣-٣٣٦ والخطط جـ١ ص٢١٨-٢٢٠ وابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ ص١٥٦-١٥٧ والعينى : عقد الجمان جـ١ ص١٨-٢٢ وراجع ابن العبرى : تاريخ الزمان ص٢٩٣ وتاريخ مختصر الدول ص٢٥٨-٢٥٩ وجوانفيل : حملة لويس التاسع ص٨١-١٤٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٦ ص٧٥ .

(٣) ابن واصل : السابق جـ٦ ص٧٥ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٣٣٦ وراجع ابن أيبك : كنز الدرر جـ٧ ص٣٦٩-٣٧٠ .

عندئذ أمر السلطان الأيوبى الصالح أيوب بالنفير العام فى الفسطاط والقاهرة للخروج لملاقاة الصليبيين وهم فى طريقهم من دمياط إلى القاهرة ، وقام الخطباء يوم الجمعة بحث المسلمين على التوجه لمنازلة الصليبيين ومنعم من التقدم جنوبا صوب القاهرة ، وحث هؤلاء الخطباء المسلمين على الجهاد بأسلوب بليغ ومواعظ حانية وجلت منها القلوب ، وذرفت معها العيون ؛ فاجتمع عالم عظيم من الفسطاط والقاهرة وسائر البلدان ، وحضر عربان الوجه القبلى، وعربان البحيرة والشرقية ، وخرج الملك الصالح بهذا السواد العظيم من القاهرة إلى المنصورة فنزل بها(١) .

وقد نصّ المؤرخ المعاصر ابن واصل على استجابة المطوعة بجميع أصنافهم لدعوة الجهاد ، فذكر أنه قدم إلى المنصورة "من الرجالة والحرافشة والغزاة المطوعة من سائر النواحى خلق كثير لا يقع عليه الإحصاء ، وورد من العربان أمم كثيرة ، وشرعوا فى الإغارة على الفرنج ومناوشتهم"(٢) . وهو الأمر الذى أكده المقريزى حيث ذكر أن الغزاة والرجال من عوام الناس ومعهم العربان الكثيرون توجهوا إلى المنصورة لجهاد الصليبيين ، وكان هذا الخلق من المطوعة "لا يحصى عددهم"(٣) .

ووصل إلى المنصورة جماهير من الإسكندرية ومن قوص ، ومن أسوان(٤) .

ومن أبرز الفقهاء الذين توجهوا إلى المنصورة لجهاد الصليبيين :

---

(١) راجع المقريزى : الخطط جـ١ ص٢١٩-٢٢٠ وابن إياس : بدائع الزهور جـ١ قسم١ ص٢٧٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٦ ص٧٦ وراجع ص١٠٧ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ قسم ١ ص٣٣٧ والخطط جـ١ ص٢١٩ وراجع ابن دقماق : نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام ص ١٩١ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ الزمان ص٢٩٣ .

١-الفقيه الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام[١] .

٢-الفقيه الشيخ بهاء الدين بن الجُمّيْزى[٢] .

٣-الفقيه الشيخ سراج الدين الأُرموى[٣] .

٤-الشيخ عماد الدين العباسى السلمانى[٤] .

٥-القاضى عماد الدين بن القطب[٥] .

٦-القاضى أصيل الدين الأسعردى[٦] .

٧-القاضى فخر الدين السكرى[٧] .

٨-الفقيه إبراهيم بن على الدمياطى[٨] .

٩-الفقيه إبراهيم بن إسحاق بن محمد[٩] .

إغارات المطوعة على الصليبيين سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م قبيل موقعة المنصورة:

شرع المطوعة فور التوجه إلى المنصورة فى انتهاز الفرص للنيل من الصليبيين المحتلين لدمياط ، فأغاروا عليهم وناوشوهم وتخطفوا بعضهم حتى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٦ ص١١٩ والسبكى : طبقات الشافعية جـ٨ ص٢١٦. وابن إياس : بدائع الزهور جـ١ قسم ١ ص٢٨٠ .
(٢) ابن واصل : السابق جـ٦ ص١١٩ .
(٣) ابن واصل : السابق جـ٦ ص١١٩ .
(٤) ابن واصل : السابق والصفحة نفسها .
(٥) ابن واصل : السابق والصفحة نفسها .
(٦) ابن واصل : السابق والصفحة نفسها وراجع جـ٥ ص٢٥١ .
(٧) ابن واصل : السابق والصفحة نفسها وراجع جـ٥ ص٢٤٢ .
(٨) المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٠٠-٢٠١ .
(٩) المقريزى : المقفى جـ١ ص٩٣ .

وصل عدد من تخطفتهم العربان وغيرهم من الصليبيين ستة وثلاثون أسـيرا ، منهم فارسان ، أرسلوا جميعا إلى القاهرة[١] . ثم وصل إليها سـبعة وثلاثـون أسيرا، ثم وصل اثنان وعشرون أسيرا ، وأخيرا وصل فى نهاية شـهر ربيـع الآخر خمسة وأربعون أسيرا من الصليبيين إلى القـاهرة ، فـيهم ثلاثـة مـن الخيالة[٢].

وتوالى سقوط الأسرى الصليبيين فى قبضة المجاهدين مـن المطوعـة وغيرهم ، واستمر نقل هؤلاء المخطوفين إلى القاهرة ليراهم من تبقـى بهـا ، فتقوى عزائمهم ، ويثقون فى النصر ، ويطمئنون على بلدهم . وقد وصل منهم فى شهر جمادى الأولى خمسون أسيرا[٣] . ووصل فى شهر رجب إلى القاهرة سبعة وأربعون أسيرا وأحد عشر فارسا منهم "وظفـر المـسلمون بعـد أيـام بمسطّح[٤] للفرنج فى البحر فيه مقاتلة"[٥] .

وقد استمرت هذه المناوشات والإغارات من المطوعة وغيـرهم علـى الفرنج خمسة أشهر كان فيها الصليبيون يخافون من العامة والمطوعة أكثر من العساكر[٦] .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٦ ص٧٦ والمقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص٣٣٧.
(٢) المقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٣٣٧ وراجع ابن واصل : السابق ص١١٠ .
(٣) المقريزى : السابق والصفحة نفسها . وراجع الخطط جـ١ ص١١٩ .
(٤) المسطح : نوع من السفن ، والغالب أنه سمى بذلك لأنه كان له سطح وكـان المـسطح بالقرب من بحيرة البرلس . د٠ محمد مصطفى زيادة : السلوك جـ١ قـسم ٢ ص٣٣٩ هامش (١) .
(٥) المقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٣٣٩ .
(٦) ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر جـ٧ ص ٣٧٦ .

ولعل مناوشات وإغارات المطوعة كانت هى الدافع بالصليبيين إلى حفر الخنادق وتحصين أسوار دمياط ، وتعيين مقاتلين صليبيين على أسوارها وأبراجها ؛ تجنبا لإغارات المطوعة الناجحة المؤثرة المحققة لأهدافها[1] .

ويذكر المؤرخ ابن واصل المعاصر للأحداث والذى كان بالمنصورة وقت هذه الوقائع أن الفرنج كانوا يجدون من حرافشة المسلمين أذى كثيرا "ويتخطف الحرافشة منهم ويقتلون ، فإذا شعر الفرنج بهم رموا بأنفسهم فى الماء ، وسبحوا إلى أن يخرجوا من جانب المسلمين ، وكانوا يتحيلون فى التخطف منهم بكل حيلة"[2] .

وبلغ هذا المؤرخ أن إنسانا من هؤلاء العوام قوّر بطيخة خضراء وجعلها مُلبسة على رأسه ، ثم سبح فى الماء ، وقرب من الصليبيين حتى ظنه بعضهم أنه بطيخة طافية على الماء ، فنزل ليتناولها ، فخطفه ذلك الشخص وأسره وأتى به إلى المسلمين[3] .

وقد أكد المقريزى على أن الصليبيين لقوا من عامة المسلمين نكاية عظيمة ، وقتلا كثيرا[4] .

وذكر المؤرخ الأنصارى أن المطوعة من القرّاء والسوقة كانوا يطمعون فى الصليبيين كثيرا ، حتى احتاط الصليبيون لأنفسهم مرة ،

---

(١) راجع عن تحصينات الصليبيين لدمياط : ابن أيبك : السابق جـ٧ ص٣٧٥ والمقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص٣٣٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٦ ص١٠٩ .

(٣) ابن واصل : السابق جـ٦ ص١٠٩ – ١١٠ وراجع المقريزى : السلوك جـ١ قسم٢ ص٣٤٨ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٣٤٨ والخطط جـ١ ص٢٢٠ .
وراجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٢٩٣ .

فاستدرجوا هؤلاء المطوعين ، فقتلوا منهم عددا ، وأصابوا عددا آخر بإصابات خطيرة[١] .

وهذا الدور الواضح للمطوعة من الفقهاء والسوقة يؤكد صدق النية فى الجهاد ، والإخلاص فى الذود عن الإسلام ودولته بمصر ، ويثبت أن هؤلاء المطوعة لم يذهبوا إلى المنصورة من كل مكان بمصر للنزهة أو للمكسب والربح ، ولذلك لا يصح – عندى – ما ذكره أحد الأساتذة الأفاضل[٢] من أن المنصورة قد امتلأت بالمطوعة الذين كان عملهم الوعظ والإرشاد والحث ، فضلا عن طوائف العامة الذين قاموا بعمليات البيع والتجارة والخدمات اليومية.

إن مصادرنا واضحة فى الكشف عن الدور الجهادى الذى قام به المطوعة جميعا فى مواجهة الصليبيين بدمياط وما حولها ثم فى قتالهم فى المنصورة ، وإن كان هذا الأستاذ قد عاد فذكر أن المدنيين أسهموا مساهمة كبيرة فى إبادة الخيالة الصليبية المبعثرة فى مدينتهم على غير هدى[٣] .

المطوعة وهزيمة الصليبيين بالمنصورة :

زحف الصليبيون من دمياط فى اتجاه القاهرة عقيب سماعهم بوفاة الصالح نجم الدين أيوب فى الرابع عشر من شعبان سنة ست وأربعين وستمائة من الهجرة ، ونزلوا فارسكور ، فارتجت الفسطاط والقاهرة وانزعج الناس بمسير الصليبيين فى اتجاه القاهرة ، وخرج من البلاد والنواحى لجهادهم عالم عظيم ، وحدثت لقاءات بين الصليبيين والمسلمين فى شهر رمضان عند بحر أشموم ، ووقع قتال بين الفريقين برا وبحرا ، وما من يوم إلاّ ويقتل من

---

(١) راجع الأنصارى : تاريخ الأكراد والأتراك مخطوط ، جـ٢ ص٦٩ أ – ٧٠ ب .

(٢) هو الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة فى كتابه : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ص١١٦-١١٧ .

(٣) راجع د٠ محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع ص١٥٧ .

الصليبيين ويؤسر ، وقد أشار المقريزى إلى أن عامة المسلمين نالوا الصليبيين كثيرا ، وتخطف المسلمون من المطوعة عددا كبيرا منهم[١] . إلاّ أن الصليبيين تمكنوا من الوصول إلى مخاضة فى بحر أشموم طناح الذى يفصل بين الصليبيين وبين معسكر المسلمين بالمنصورة ، ودلّ نصرانى[٢] الصليبيين على هذه المخاضة المعروفة بمخاضة سلمون ، وعبر خلالها عدد من الصليبيين بحر أشموم إلى المسلمين الذين لم يشعروا إلاّ والفرنج معهم فى المعسكر ، وتمكن الصليبيون من الانتصار على فرقة من الجند الأيوبى بمكان عرف بـ "جديلة" على الشاطئ الجنوبى لبحر أشموم[٣] .

ونتيجة لهذه المفاجأة الصليبية للمسلمين ، تقهقروا إلى المنصورة حيث المعسكر الرئيس للقوات الإسلامية ، وتبعهم الصليبيون ، وفى المنصورة تلاحم المطوعة مع الجيش ، واشتركا معا فى إلحاق هزيمة قاسية بالصليبيين ، وكان اقتحام الصليبيين للمنصورة فى الرابع من ذى القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة من الهجرة ، وكانت أزقة المنصورة ضيقة[٤] ، مكتظة الأشجار[٥] ، وتفرق

---

(١) راجع المقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٣٤٦-٣٤٨ .

(٢) راجع المقريزى : السابق ص٣٤٩ وابن واصل : مفرج الكروب جـ٦ ص١١١ .
وللوقوف على مواقف مماثلة لبعض أهل الذمة بمصر فى عصر الأيوبيين راجع ابن الأثير : الكامل جـ١٢ ص٥٥ والنويرى : نهاية الأرب جـ٢٩ ص٣٤٨ ، وعن مواقف أخرى لهم فى الاتجاه نفسه راجع كتاب الباحث "الشرق الإسلامى فى ظلال المماليك والعثمانيين" ص٢٣٢-٢٣٣ .

(٣) راجع تفاصيل ما سبق لدى سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص٧٧٦-٧٧٧ وابن واصل . السابق ص١١١ والذهبى : دول الإسلام جـ٢ ص١٥٢ والعبر جـ٥ ص١٩٣ وابن أيبك : كنز الدرر جـ٧ ص٣٧٦ والمقريزى : السابق ص٣٤٩-٣٥٠ والخطط جـ١ ص٢٢٠ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٢٥٩ .

(٥) ابن العبرى : تاريخ الزمان ص٢٩٣ .

الصليبيون فى أزقتها ، فانهزموا على أيدى مماليك الصالح نجم الدين أيــوب ، وعاد من نجا من القتل منهم إلى مكان معسكرهم "جديلة" وكانت هذه الوقعة أول ابتداء النصر على الصليبيين(١) . وقد وردت إشارات لدى ابــن واصــل عــن مشاركة العامة للجند فى هذه المواقع الحربية(٢) .

وجرت معارك أخرى بين الجند المسلم وبين الصليبيين عند دميــاط ، سجلها المؤرخ ابن واصل(٣) الذى كان يومئذ بالمنصورة مع عدد من الفقهاء فى بلاط الملك المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب .

أما عن دور المطوعة خاصة فى هزيمة الصليبيين بالمنصورة ، فــإنّ ابن العبرى(٤) يذكر أن العامة كانت تقاتل الــصليبيين بالمنــصورة بالحجــارة والآجر(٥). ويشير ابن إياس إلى أن العربان شاركوا فــى القتــال بالمنــصورة بالرماح والمقاليع(٦) والحجارة ، وكانوا يلبسون على رءوســهم طاســات مــن النحاس الأبيض عوضا عن الخوذ وأنهم قاتلوا فى ذلك اليوم قتال الموت(٧) .

ويذكر أحد الباحثين(٨) أن المدنيين من أهل المنصورة – أى المطوعــة من غير الجند النظامى – أسهموا مساهمة كبيرة فى إبــادة الخيالــة الــصليبية المبعثرة فى مدينتهم على غير هدى ، إذ أخذ بعضهم فى عرقلة الطــرق بمــا

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جــ٦ ص١١١-١١٢ وابن أيبك : كنــز الــدرر جــ٧ ص٣٧٥-٣٧٧ والمقريزى : السلوك جــ١ قسم ٢ ص٣٥٠-٣٥١ .

(٢) راجع ابن واصل : السابق ص١١٣ وراجع المقريزى : السابق ص٣٥٣-٣٥٤ .

(٣) راجع ابن واصل : السابق ص١٢٠-١٢٢ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٢٥٩ .

(٥) الآجر : اللبن المحرق المعد للبناء . المعجم الوسيط جــ١ ص١٧ .

(٦) المقاليع : جمع مقلاع وهو ما يرمى به الحجر . المعجم الوسيط جــ٢ ص٧٥٥ .

(٧) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جــ١ قسم ١ ص٢٨٠ .

(٨) د٠ محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع ص١٥٧ .

وصلت إليه أيديهم من ألواح وعروق وكتل من الخشب ، كما أخذ بعضهم فى رمى الفرسان والخيالة الصليبية بالحجارة والطوب وغير ذلك من مقذوفات المدنيين .

ولا شك فى أن ضيق شوارع المنصورة آنذاك التى شهدت الوقعة الحربية قد كشفت عن حماس الجند والمطوعة الذين قاتلوا فى أزقة ضيقة عرضتهم للقتل ، وهو ما حدث للجند والمطوعة معا ، إذ يذكر ابن إياس أنّ ستين أميرا قد قتلو بالمنصورة "غير المماليك السلطانية وغير العربان والعوام"[١]. وقد أشارت المصادر إلى استشهاد بعض الفقهاء بالمنصورة ، ومنهم : إبراهيم بن إسحاق بن محمد[٢] ، وإبراهيم بن على بن ظافر الدمياطى[٣] .

وكانت هزيمة الصليبيين بالمنصورة بداية لسلسلة من الهزائم المتتالية التى شارك فيها المطوعة أيضا ، وقد ذكرت المصادر وجود المطوعة مع الجند فى أثناء عقد المفاوضات بين السلطان تورانشاه وبين ملك فرنسا لويس التاسع الذى وقع مع معظم جيشه فى أسر المسلمين عندما قطعوا عليه خط الرجعة إلى دمياط فى أول شهر محرم سنة ثمان وأربعين وستمائة من الهجرة، بعد هزيمة المنصورة ، ثم حمل عليه المسلمون حملة صادقة عند فارسكور ، فهزم الصليبيون هزيمة منكرة منعتهم من العودة إلى القاعدة الحربية للصليبيين بدمياط ، ووقع عدد كبير من الجيش الصليبى فى الأسر ، وعلى رأسه قائده لويس التاسع الذى اعتقل فى دار القاضى إبراهيم بن لقمان بالمنصورة ، ولم

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ قسم ١ ص٢٨٠ وراجع ابن دقماق : نزهة الأنام ص١٩١ .

(٢) المقريزى : المقفى جـ١ ص٩٣ .

(٣) المقريزى : المقفى جـ١ ص٢٠٠-٢٠١ .

يطلق سراحه إلا بعد تقديم مبلغ كبير من المال والتعهد بترك دمياط والعودة من خيث أتى ، وألا يقوم بمغامرة حربية أخرى على ديار المسلمين(١) .

وقد أقر السلطان تورانشاه بدور المطوعة فى قتال الصليبيين فى معركة المنصورة فى رسالة بعث بها إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين موسى بن يَغْمور يبشره فيها بالنصر على الصليبيين ، وجاء فى هذه الرسالة أن العربان والمطوعة اجتمعوا بالمنصورة من كل فج عميق ومن كل مكان سحيق فى عدد لا يعلمه إلا الله ، ففرق فيهم السلاح ، وفتحت الخزائن ، ووزعت الأموال(٢) .

وبعد ... فلقد كانت معركة المنصورة ومقدماتها وما تلاها من معارك ووقائع أدت إلى جلاء الحملة الصليبية السابعة عن مصر من المعارك التى برز من خلالها تعاون المطوعة بجميع أصنافهم وطوائفهم مع الجيش والمماليك بصفة خاصة ، فى طرد الغزاة الصليبيين من مصر ، وردهم عنها خاسرين نادمين يجرون أذيال المذلة والهوان والهزيمة .

* *

---

(١) راجع ابن واصل : مفرج الكروب جـ٦ ص١٢٤-١٣٥ والمقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص٣٥٥-٣٦٦ .

(٢) راجع ابن دقماق : نزهة الأنام ص١٩١ والنويرى : نهاية الأرب ص٢٩ ص٣٥٧ والمقريزى : السلوك جـ١ قسم ٢ ص٣٥٧ وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣٢٥ .

المصادر والمراجع

******

أولاً : المصادر :

- ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد ت ٦٣٠هـ/١٢٣٠م) : الكامل فى التاريخ ، دار صادر – بيروت – لبنان .
- الأنصارى (محمد بن إبراهيم) : تاريخ دولة الأكراد والأتراك ، مخطوط بدار الكتب برقم ٥٠٠٧٩ .
- ابن اياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . تحقيق محمد مصطفى . الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م) : كنز الدرر وجامع الغرر جـ٧ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧٢م .
- ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) : نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام . تحقيق سمير طبارة . المكتبة العصرية ، بيروت .
- الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) :
  * العبر فى خبر من غبر . تحقيق فؤاد سيد . الكويت .
  * دول الإسلام . تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى . قطر.
- سبط بن الجوزى (شمس الدين يوسف ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، حيدر آباد ، الهند ١٣٧٠هـ/١٩٥١م .

- السبكى (تاج الدين عبد الوهاب ت (٧٧١هـ/١٢٧٢م) : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود الطناحى وعبد الفتاح الحلو ، دار إحياء الكتب العربية .

- ابن العبرى (جريجوريوس أبو الفرج ت ٦٨٥هـ) :

* تاريخ مختصر الدول ، بيروت .

* تاريخ الزمان ، دار المشرق ، بيروت .

- عثمان النابلسى (عثمان بن إبراهيم ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

- العينى (بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م) عقد الجمان فى تاريخ الزمان (١-٤) تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الغسانى (الملك الأشرف الغسانى ، أحد ملوك اليمن ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م) : العسجد المسبوك والجوهر المحكوك فى طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ، دار التراث الإسلامى ، بيروت ١٩٧٥م .

- ابن كثير (عماد الدينى أبو الفدا ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) : البداية والنهاية ، دار الفكر العربى ، القاهرة .

- المقريزى (أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) :

* المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلادى ، دار الغرب الإسلامى ، لبنان .

* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مطبعة بولاق .

* السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد زيادة ، دار الكتب المصرية .

- النويرى : (أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/١٢٣٢م) : نهاية الأرب فـــى فنون الأدب ، دار الكتب المصرية .

- ابن واصل (جمال الدين محمد ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) : مفرج الكروب فـــى أخبار بن أيوب جـ٦ تحقيق عمر عبد السلام ترمرى ، المكتبة العــصرية ، بيروت .

ثانيًا : المراجع :

- جوانيفل (مؤلف صليبى مشارك فى حملة لويس التاســع) : حملــة لــويس التاسع. ترجمة حسن حبشى ، دار المعارف .

- محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع علـــى مــصر ، وهزيمتــه فـــى المنصورة . المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

* * *